نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمـــــة

وبصرف النظر عن هـذه الحملة الباطلة التى أثارتها عوامل الحقد والحسد والتى لم يكن لها أساس من الواقع والحقيقة فى شىء ، فأن الذى نحب أن نستخلصه من الأفكار السابقة هو أن السيد يلتقى مع الفارابى فى نقطتين هامتين ؛ فهو يوضح أولاً مهمة النبى الاجتماعية والسياسية ، وهذه مسألة يعد الفارابى من أول من صوروها فى الاسلام بصورة علمية نظرية ، وربما تلخص كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » فى إدعام فكرة النبوة على أساس من « جمهورية » أفلاطون وعلم النفس عنـد أرسطو . والسيد وهو مصلح دينى وسياسى لابد له أن يحتذى هذه الخطى ويسير على هذا النهج . ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نشير إلى أن النبى والحكيم يقتربان عند هذين المفكرين إلى حد كبير ، فهما روح الجمعية ومبعث الحياة والاصلاح . نعم إن السيد يفرق بينهما من ناحية الكسب والعصمة ، فى حين أن الفارابى لم يوضح القول فى الأول وأغفل الثانية بتاتاً ، وبدا كأنه يسوى بين النبى والفيلسوف من جميع الوجوه . ولكن يجدر بنا ألا ننسى أن الفارابى كان يصعد بالحكيم إلى مستوى هو العصمة بعينها ولا يمكن أن يتصور فيه الزلل ، ولهذا لم يفرق بينه وبين النبى فى هذه النقطة . وفوق هذا فأن السيد إذا كان قد جهر بهذه التفرقة فهو متأثر بعصره وبيئته والحملات التى وجهت من قبل إلى البحث العقلى ، لأنه يعود إلى موضوع الحكمة بعد سبعة قرون قضاها المسلمون فى مطاردة الفلسفة والفلاسفة . فلم يكن فى مقدوره أن يدعو للفلسفة دعوة صريحة ولا أن يثبت لها حقاً فى الحياة مكتملاً من كل نواحيه . وكيفما كانت الفوارق بينه وبين الفارابى فما لا شك فيه أنه قرب المسافة بين النبى والحكيم ، وعدهما معا مصدر تقويم وإصلاح ؛ وهاتان الفكرتان فارابيتان فى أصلهما سـواء أكان السيد قد استمدهما مباشرة من كتب الفارابى أم بالواسطة من مصدر آخر . وقد ساهم السيد فى نصرة الفلسفة والأخذ بيدها وساعد على إحياء دراستها فى الشرق بعد أن كان الناس قد انصرفوا عنها زمناً

ولم يكن الأستاذ فى تأثره بالفارابى أقل وضوحاً من شيخه وصديقه السيد جمال الدين ، فقد قرأ ابن سينا واشترك بنفسه فى إحياء الدراسات الفلسفية القديمة المهجورة . وفى نشره لكتاب « البصائر النصيرية » ما يشهد بذلك . هذا الى إنه وإن اشترك مع السيد فى فكرة التجديد والاصلاح يخالفه فى الوسائل الموصلة الى ذلك . فبينما السيد مجدد طموح يريد الوصول سريعا وعن طريق السياسة ، إذا بالأستاذ الامام يعتقد أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة وأن الاصلاح يستلزم خطوات رزينة ، وتدرجا معقولا ، ودعائم مثبتة من الأخلاق والدين . لهذا اتجه أولاً وبالذات نحو التعاليم الدينية محاولا أن يصوغها فى القالب الذى يتفق وروح العصر ، وأن يصعد بها الى ما كان عليه السلف الأول[1] . فقد كان على يقين مما لحق الاسلام من أفكار فاسدة صوّرته بصورة معيبة شنيعة ، ووضعت حجر عثرة فى سبيل النهوض والتقدم . ولم ير بدا من محاربة هذه الأباطيل والترهات والقضاء على البدع والخرافات ، والأخذ بيد التفكير الحر الطليق تحت راية الدين الصحيح ؛ وأثره فى هذه الناحية أوضح من أن ينوه عنه . وفى رأيه أن العلم والدين لا يختلفان مطلقاً ، بل يجب أن يتضافرا على غاية واحدة هى تهذيب الانسانية وترفيهها وإسعادها[2] . فالدين يحول دون الانسان والزيغ الذى يقود اليـه عقل جامح ؛ والعلم يوضح الأصول الدينية ويبين أنها لا تتنافى مع المبادىء العقلية . ولن نستطيع الأدلاء هنا بكل أفكار الأستاذ الامام الدينية ، وسنكتفى بأن نلخص رأيه فى النبوة كى تتبين وجوه الشبه بينه وبين النظرية الفارابية

يقف الأستاذ الامام على هذا الموضوع ثلث « رسالة التوحيد » المشهورة أو يزيد ، وفيها يتحدث عن الرسالة العامة وحاجة البشر إلى الرسل وإمكان الوحى ووقوعه ووظيفة الرسل ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ويصرح بأن الانسان مدنى

(١) Encyc. de l'Islam Mohamed Abdo.

(٢) محمد عبده ، الاسلام والنصرانية

بطبعه محتاج الى المخالطة والعاشرة ، وعلى كل فرد من أفراد الجمعية واجب يؤديه وحق يطالب به [١] . بيد أن الأفراد قد يخلطون الحقوق بالواجبات ، ويتهاونون فيما كلفوا به مسرفين كل الاسراف فيما يدعونه لأنفسهم من حقوق ؛ فتعم الفوضى وينتشر الفساد ، وتصبح الجمعيـة فى حاجة ماسة إلى قيام بعض أفرادها هداة ومرشدين ، يبينون للناس النافع والضار ، ويميزون لهم الخير من الشر ، ويعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يقفهم عليه من شؤون ذاته وكمال صفاته ؛ وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم [٢] . فبعثهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع الانسانى منزلة العقل من الشخص ؛ منحة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعـد الرسل [٣] . وليس غريباً أن يختص الله بعض خلقـه بالوحى والالهام ، فقد سمت نفوسهم وأصبحوا أهلاً للفيض الالـهى والكشف الربانى ؛ وبديهى أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً ، ولا يدرك الأدنى منها الأعلى إلا على وجه الاجمال . وليس هذا التفاوت نتيجة الاختلاف فى التعليم فحسب ، بل كثيراً ما كان أثراً من آثار الاختلاف فى الفطرة التى لا تخضع لقوانين الكسب والاختيار ؛ ولا يزال المرء يرقى فى الكمال حتى يبدو البعيـد له قريباً ، وتنفتح أمامه حجب الغيب [٤] . يقول الأستاذ الامام : « فاذا سُلِّم ولا محيص من التسليم بمـا أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها ألا يسـلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالـهى لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهى من الانسانية إلى الذروة العليـا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسـه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم [٥] »

لا نظننا فى حاجة أن نشير إلى أن كثيراً من هذه المعانى التى يرددها الأستاذ الامام قال بها السيد جمال الدين . فمهمة النبى فى رأيهما أخلاقية اجتماعية ، ووظيفته تنحصر فى تربية الشعوب والسير بها نحو الطريق القويم . وإذا كان السيد قد اعتبر النبى روح الجمعية الانسانية فالأسـتاذ الامام عده عقلها . ولا نظننا مغالين إذا قلنا إن الامام يعود بنا إلى عصر الفارابى وابن سينا اللذين كانا يفسران النبوة تفسيراً علمياً سيكلوجياً . وهو يميل دائماً ، كما قدمنا ، إلى أن يرجع التعاليم الاسـلامية إلى الحال الزاهرة التى كان عليها السلف الأول ؛ وفى كثير من آرائه ما يقربه من هذين الفيلسوفين وما يدفعنا لأن ندرس العلاقة بينه وبينهما فى شكل أكمل وعلى صورة أوضح . فهو يقرر مثلهما أن التعاليم والأوامر الدينية يراد بها الشـعوب وعامة الناس فى حين أن الفلسفة إن صلحت غذاء لطائفة معينة فليس فى مقدور الجميع استساغتها . ويقول بالأسباب الطبيعية التى أنكرها أهل السنة ملاحظاً ، كما لاحظ فلاسفة الاسلام من قبل ، أنها لا تتنافى مع قدرة الله واختياره فى شىء . وفى اختصار يتفق الأستاذ الامام مع الفارابى فى محاولته التوفيق بين العقل والنقل ، بين العلم والدين . وهذه المحاولة تدور عادة حول نقط تكاد تكون محدودة ، ولعل هـذا هو السبب الذى قرب المسافة فى بعض المسائل بين هذين المفكرين

تتبعنا فى كل ما سبق نظرية النبوة الفارابية منـذ نشأتها ، أعنى فى القرن العاشر الميـلادى ، إلى أن وصلنا بها إلى أوائل القرن العشرين ؛ ونأمل أن نـكون قد وفقنا لبيان أثرها فى الشرق والغرب ، فى التاريخ المتوسط والحديث ؛ ونعتقد أن فى هذا ما يحفزنا إلى إخباء الدراسات الفلسفية الاسـلامية ، فقد ثبت أن هناك صـلة بين أفكار اليوم والأمس ، وفى أبحاث القرون الوسطى ، كما لاحظ ليبنتز ، درر نفيسة لا يصح إغفالها . على أن نهضتنا العقلية والفكرية لا يمكن أن تؤسس على أساس صالح إلا إن ربط فيها الحاضر بالماضى واتصلت سلسلة التفكير الاسلامى الصحيح ؛ ولنا فى الأستاذ الامام والسيد جمال الدين أسوة حسنة

ابراهيم بيومى مدكور

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص ٧٣ — ٧٤
(٢) المصدر نفسه : ص ٨٢ — ٨٣
(٣) المصدر نفسه : ص ٨٤
(٤) المصدر نفسه : ص ٨٥
(٥) المصدر نفسه : ص ٨٦